

مع الزمخشري في آرائه النحوية

نجم الدين الحاج عبد الصفا*

Abstrak

Makalah ini menjelaskan kehidupan ilmiah seorang intelektual muslim yang cukup terkenal pada akhir abad kelima sampai awal abad keenam hijriah yaitu al-Zamakhshary. Beliau adalah ilmuan yang menguasai beberapa disiplin ilmu, dia sebagai linguis, sastrawan, penyair, mufassir, filosof dan penulis produktif. Makalah ini memuat juga secara detail pendapat-pendapat beliau dalam bidang linguistic Arab.

الزمخشري هو عالم لغوي ، وأديب بلاغي ، وشاعر موهوب ، ومفسر بياني ، و كلامي معتزلي ، ومؤلف إبدائي . وهو غني عن التعريف ، إذ كان عالماً موسوعياً ترك لنا عشرات من مؤلفاته المختلفة التي تحمل في طيات صفحاتها علومًا متنوعة ، ولذلك قال الحوفي (1980: 3-4) : ومن حق الزمخشري أن يخصص بدراسة مفصلة متكاملة ، تكشف عن عصره وحياته وأساتذته وتلاميذه ومؤلفاته ، وتفوقه وابتدائه . فقد كان في الصدارة بين علماء عصره ، وكان إماماً في أفانين من المعرفة ، وخلف في كل منها آثاراً بقي منها كثير ، واحتجب منها كثير ، ولعله يسفر بعد طول احتجاب ، وإن ما بقي من آثاره لكفيل بتقديره ، والتنويه به ، والإحتفاء بذكراه . وعلى الرغم من ذلك فليس الهدف من هذه المقالة استخراج جميع جواهره الثمينة من بحار علومه العميقة ، وعرض أفكاره القيمة من آفاقه الواسعة ، ولكن الهدف الأساسي منها يكون محدوداً في الحديث عن بعض آرائه والنحوية .

واسمه هو محمود بن عمر بن أحمد . وكنيته أبو القاسم ، وغلبت عليه النسبة إلى بلده الذي ولد به ونشأ فيه . ولقب نفسه بـ " جار الله " بعد أن جاور بمكة زمناً طويلاً ، حتى صار هذا اللقب علماً عليه . وقد اتفق المؤرخون على أنه ولد بزمخشري في

* Dosen Jurusan Sastra Asia Barat Fakultas Sastra UNHAS

السابع والعشرين من رجب سنة 476 هـ (1074م)، وتوفي سنة 538 هـ بعد أن عاش 71 سنة (الحوفي 1980: 35). وكان مولده في عهد السلطان ملكشاه السلجوقي، ووزيره نظام الملك، وهو من أزهى الفترات التي نهضت فيها الآداب والعلوم، ولذلك نشأ فيه الزمخشري مكبا في طلب العلم، ثم ارتحل إلى بخارى ليواصل مسيرته العلمية في مطلع حياته، لأنها كانت منذ زمن طويل بمثابة المجد، وكعبة الملك، ومجمع أفراد الزمان، ومطلع نجوم أدياء الأرض، وموسم فضلاء الدهر. وبعد أن تلقى علومه في بخارى سافر إلى بغداد لينضم إلى حلقات علمائها النابغين، ثم جاور مكة المكرمة حقبة طويلة بين الدراسة والتأليف، وفيها يؤلف كتابه الموسوعي "الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل". ثم عاد إلى موطنه، ومالات الآفاق شهرته، ووفد الطلاب عليه من كل صوب وحدث يأخذون منه معجبين مكبرين.

ثقافته

كان الزمخشري ذكيا ومشغوبا بالثقافة، تبشر مخايله بمستقبل واعد، حتى لقد أعجب أستاذه أبو مضر بدكائه وجدده، فتعهد برعايته وتوجيهه، وساعده بماله مؤملا أن يخلفه. وتلقى العلوم من ينابيع كثيرة، وأخذ المعارف من علماء عصرهم، كما نهل من مؤلفات سابقهم. وفيما يلي نذكر بعض أسماء أساتذتهم الذين استقى منهم، وهؤلاء هم:

- 1- أبو مضر محمود بن جرير الضبي الأصفهاني (507 هـ)، وهذا ترك أثرا كبيرا في نفسه حيث درس عليه النحو والأدب، إذ كان يلقب بفريد العصر، ووحيد الدهر في علم اللغة والأدب.
- 2- شيخ الإسلام أبو منصور نصر الحارثي، سمع منه الزمخشري الحديث النبوي.

- 3- أبو سعد الشقاني ، درس منه الحديث النبوي .
- 4- أبو الخطاب بن أبي البطر ، وهو كذلك من أساتذته الذين أخذ منهم الحديث .
- 5- أبو علي الحسن بن المظفر النيسابوري ، أخذ منه الزمخشري علوم الأدب .
- 6- الفقيه الحنفي قاضي القضاة أبو عبد الله مُحَمَّد بن علي الدامغاني ، تلقى منه الزمخشري علوم الفقه في بغداد .
- 7- العالم النحوي هبة الله بن علي أبو السعادات ، المشهور بابن الشجري ، أخذ منه الزمخشري علم النحو .
- 8- أبو منصور موهوب بن أبي طاهر أحمد الجواليقي ، قرأ عليه الزمخشري كتب اللغة .
- 9- عبد الله بن طلحة اليابري ، وعليه قرأ الزمخشري كتاب سيبويه حينما مكث في مكة المكرمة.

ومما يدل على سعة أفقه العلمي كثرة تلاميذه الذين أخذوا منه علوما متنوعة ، ونشروها في بقاع العالم ، وذكر القفطي (الحوثي 1980: 52) أنه ما دخل بلدا إلا اجتمع الناس عليه ، وتلمذوا له ، واستفادوا منه . من بين تلاميذه المشهورين أبو عمرو عامر بن الحسن السمار من زمخشري ، وأبو المحاسن إسماعيل بن عبد الله الطويلي من طبرستان ، وأبو المحاسن عبد الرحيم بن عبد الله البزار من أبيورد ، وأبو سعد أحمد بن محمود الشاتي من سمرقند ، وأبو طاهر سامان بن عبد الملك الفقيه ، والموفق بن أحمد بن أبي سعيد وعلي بن مُحَمَّد العَمَراني من خوارزم ، وأبو الحسن الأديب الملقب بحجة الأفاضل وفخر المشايخ ، ومُحَمَّد بن أبي القاسم من أيجوك ، وأبو الفضل اليقالي النحوي الأديب من خوارزم ، وأبو يوسف يعقوب بن علي بن مُحَمَّد بن جعفر النحوي لأديب من بلخ ، وعلي بن عيسى بن حمزة بن وهاس ، وزينب بنت الشعري ، وكثير من هؤلاء لم نذكرهم ، وبقي أن نعيد القول الذي قال عنه الحوثي (1980: 54-55)

(وليس من شك في أن تلاميذ كتبه كانوا كثرة ، وأن قراء مؤلفاته كانوا يقدرّون علمه ، لأنه كان في عصره علامة الأدب ، ونسابة العرب ، وكان أعلم فضلاء العجم بالعربية في زمانه ، وأكثرهم أنسا واطلاعا على كتبها ، وبه ختم فضلاؤهم .

مؤلفاته

وكان الزمخشري منذ نعومة أظفاره مشغولاً بالدرس والبحث ، منتقلاً بين زمخشري وخوازم من أجل استقاء العلوم من ينابيع كثيرة من علماء عصره ، وقد امتزج بالعلوم العربية والإسلامية امتزاجاً شغل قلبه ، وامتلك نفسه ، وكان أعزب ، لا تنصرفه عن التأليف شواغل الآباء بالأسرة والأبناء . ولهذا كله فرغ للعلم ، فانهمرت عليه سحائب العلم ، ومنح الثقافة جهده ، فجادت عليه الثقافة بأوفر نصيب ، وحبس على التأليف نشاطه ، فكثرت مؤلفاته وتنوعت ، وحلّ د كثير منها إلى اليوم (الحويني 1980: 57).

وتشمل مؤلفاته اللغة والنحو والعروض والأدب والبلاغة والتفسير والقراءات والحديث والفقه وعلم الكلام والمنطق ، ولهذا اعتزبتدراساته ومؤلفاته ، وافتخر بها في قوله

—:

تراني في علم المتزل عالماً + وما أنا في علم الأحاديث راسفا
 فلسنة البيضاء فيّ مناجح + ويغي كتاب الله مني المعارفا
 وما أنا من علم الديانات عاطلاً + فأحسن حلي لم يزل لي شانفا
 وما للغات العرب مثلي مقوم + أبي كل ندب متقن أن يخالفا
 وبني يستفيد النحو من أن يسوسه + نهى لم يجدها الذائقون حصائفا
 وعلم المعاني والبيان كلاهما + أرفق إلى الخطاب منه وصائفا
 وعلم القوافي والأعاريض شاهد + بفسحة خطوى فيه إذ كنت زاحفا

أفرت بي الآداب أصلا لها ومن + رأى مشرفيات جحدن المشارفا
 وديوان منظومي يريك بدائعا + وديوان منشوري يريك طرائفا
 (الحوبي 1980 : 66)

وعدد مؤلفاته يتكون من سبعة وأربعين مؤلفا ، وهي كما يلي :-

- 1- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل
- 2- رؤوس المسائل (في الفقه)
- 3- معجم الحدود (في الفقه)
- 4- المنهاج (في الأصول)
- 5- ضالة الناشد والرائض في علم الفرائض
- 6- مختصر الموافقة بين أهل البيت والصحابة
- 7- شقائق النعمان في حقائق النعمان
- 8- شافي العي
- 9- رسالة في حكمة الشهادة
- 10- أساس البلاغة
- 11- الفائق في غريب الحديث
- 12- الجبال والأمكنة والمياه
- 13- أعجب العجب في شرح لامية العرب
- 14- شرح مقامات الزمخشري
- 15- المستقصى في أمثال العرب
- 16- جواهراللغة
- 17- متشابه أسامي الرواة
- 18- صميم العربية

- 19- معجم عربي فارسي
- 20- المفصل
- 21- الأنموذج
- 22- شرح أبيات كتاب سيبويه
- 23- المحاجاة بالمسائل النحوية (الأحاجي النحوية)
- 24- مقدمة الأدب
- 25- نكت الأعراب في غريب الإعراب
- 26- الأمالي في النحو
- 27- المفرد والمركب
- 28- شرح بعض مشكلات المفصل
- 29- القسطاس (في العروض)
- 30- نوابغ الكلم
- 31- مقامات الزمخشري
- 32- أطواق الذهب
- 33- ديوان الزمخشري
- 34- القضيذة البعوضية
- 35- ربيع الأبرار ونصوص الأخيار
- 36- النصائح الصغار والبوالغ الكبار
- 37- نزهة المستأنس
- 38- ديوان الرسائل
- 39- ديوان خطب
- 40- ديوان التمثيل
- 41- تسلية الضربير

- 42- رسالة الأسرار
 43- الرسالة الناصحة
 44- سوائر الأمثال
 45- رسالة المسأمة
 46- عقل الكل
 47- كتاب الأجناس

وهي كلها خير شاهد بالصدق على أنه كان متنوع الثقافة ، وأنه وهب الدين والعلم واللغة والأدب جهوده وحياته ، وكان إلى ذكائه وسعة اطلاعه قويا في الحججة ، حرا في الفكر، بارعا في الجدل ، شجاعا في الإستنباط ، مبتكرا في الآراء.

أراؤه النحوية

ذكرنا أن للزمخشري كتباً في النحو ، وكان كلفا بالنحو ، بصيرا بدقائقه ، ولهذا ليس من الغريب إذا تعرض كثيرا في تفسيره للإعراب ، فأعرب كلمات ، وأورد آراء النحاة في إعراب كلمات ، وناقش الأعراب ، واختار ما رآه أصح وأصوب ، وكثيرا ما كان يستشهد بالأشعار .

وإذا تتبعنا منهجه النحوي ونتعقب آراءه وجدناه يمثل الطراز البغدادي عند الفارسي وابن جني في التعبير عن البصريين باسم أصحابه ، و لذلك لاحظناه في أغلب آرائه كان متفقا مع آراء النحاة البصريين ، واضعا كتاب سيويه نصب عينيه ، وعلى الرغم من ذلك فإن هذا الموقف لا يمنع من الأخذ بآراء الكوفيين من حين إلى حين ، إلا أنه قد ينفرد بآراء مستقلة لم يسبقه أحد من النحويين.

ومن الآراء النحوية البصرية التي يتبعها الزمخشري مايلي :-

1- العامل في التنازع هو الفعل الثاني (ابن يعيش 77/1)

2- وكلمة " زيد " في قولك : هل زيد قام ؟ ، فاعل لفعل محذوف يفسره الفعل المذكورلا مبتدأ (ابن يعيش 81/1)

3- الاسم الواقع بعد " إن الشرطية " في مثل قوله تعالى (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره) يعرب فاعلا لفعل محذوف يفسره الفعل المذكور(ابن يعيش 82/1)

4- الاسم المتلو ل " لولا " في مثل قولهم : لولا مُجَّد لضربت ، في محل رفع مبتدأ ، وخبره محذوف (ابن يعيش 95/1)

5- وخبر " إن وأخواتها " مرفوع بها ، وليس مرتفعا به فبل أن تدخل " إن " (ابن يعيش 101/1)

6- والناصب للمنادى هو الفعل الذي ينوب عنه حرف النداء ، مثل أدعو ، وأريد (ابن يعيش 127/1)

ومن آراء الشخصيات البارزة من البصريين التي رجحها الزمخشري ما يلي :-
1- ترجيحه لرأي الخليل الذي يرى أن الفاعل أصل المرفوعات ، والمبتدأ محمول عليه ، خلافا لما ذهب إليه سيبويه الذي يرى عكس ذلك (ابن يعيش 71/1 ، الهمع 93/1)

2- ترجيحه لرأي الأخفش في كثرة مجيء " الكاف " في النثرمرادفة ل " مثل " ، فتعرب إعرابها ، وتخرج عن حرفيتها ، مثل قولهم : زيد كالأسد ، فالكاف في محل رفع خبر ل " زيد " ، وهو مضاف إلى " الأسد " (ابن يعيش 42/8)
3- ترجيحه لرأي المبرد في أن كلمة " الآن " مبني ، لأنها استعملت من أول وضعها بالألف واللام ، ولا تستعمل نكرة (ابن يعيش 103/4)

4- ترجيحه لرأي الزجاج في اعتبار فعل " أكرم " في قولهم : أكرم بزيد ، أمرا على حقيقته ، لكل أحد أن يصف زيدا بالكرم ، والباء زائدة (ابن يعيش 147/7)

ومن آراء الكوفيين التي اختارها الزمخشري ما يلي :-

1- اعتبار فعل " حدّث " من الأفعال المتعدية إلى ثلاثة مفاعيل بدليل قول الحارث بن حلّزة اليشكري :

إن منعتم ما تُسألون فمن حُ + دثتموه له علينا العلاء (ابن يعيش 65/7)

2- عدم وجوب التطابق بين البدل والمبدل منه في التعريف والتنكير ، بدليل قوله تعالى في سورة الشورى 51-52 (لتهدى إلى صراط مستقيم ، صراط الله) وقوله عز وجل في سورة العلق 15-16 (لنسفعا بالناصية ، ناصية كاذبة خاطئة) (ابن يعيش 68/3، الهمع 121/2)

3- كون جملة البسمة متعلقة بفعل محذوف تقديره " أقرأ " (ضيف 1979: 285)

4- وقوع " أن وما بعدها " في مثل قولهم : لو أنك جئت ، فاعل لفعل محذوف تقديره " ثبت " ، لأن " لو " تحتاج إلى فعل متلو بعدها (ابن يعيش 81/1 ، الهمع 138/1)

وآراء أبي على الفارسي التي وافقها الزمخشري كالاتي :-

1- أن " ما " في مثل قولهم : نعمًا محمد ، تقع نكرة تامة منصوبة على التمييز (ابن يعيش 136/7، الهمع 250/1، ضيف 1979: 285)

2- تقسيم الجملة إلى أربعة أقسام ، وهي الإسمية والفعلية والشرطية والظرفية ، ولكن ابن يعيش اعترض على هذا التقسيم بدليل أن الشرطية والظرفية من الجمل الفعلية ، ولأن الشرطية تتكون من فعل الشرط وفعل الجواب . وكذلك الظرفية ، لأنها تتعلق بفعل مقدر (ابن يعيش 88/1)

3- قولهم إنما تزداد " الباء " مع " ما الحجازية العاملة " ، ولا تزداد مع " ما التميمية المهملة " كما في: ما مُجَّد بقائم (ضيف 1979: 285)

وأما آراء ابن جني التي وافقها الزمخشري فمنها :-

1- مجيئ " أن " ظرفية على غرار " ما " الزمانية ، كما في قولهم : جئتك أن
تصلى العصر، أي زمن صلاة العصر، وعلى هذا خرّج الزمخشري على هذا
المعنى قوله تعالى(أن آتاه الله الملك) أي وقت أن آتاه (السيوطي 82/1 ،
ضيف 1979: 285)

2- وقوع الجملة بدلا من المفرد بدليل ورودها في الشعر العربي :-
إلى الله أشكو بالمدينة حاجةً + وبالشام أخرى كيف يلتقيان (ضيف
1979: 286السيوطي 128/2)

وبعد العرض لآراء النحاة التي وافقها الزمخشري أو اختارها ، نعرض آراءه التي انفرد بها
عن غيره ، ولم يسبقها أحد في الاستنباط من النصوص العربية ، سواء كانت من
الآيات القرآنية أو الأشعار وكلام العرب ، كما يلي:

1- وقوع " إذ " مبتدأ مستدلا على قراءة بعضهم آية آل عمران 164(لقد من
الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا) ب " لَمِنْ مَنِ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ
فِيهِمْ رَسُولًا " أي وقتُ بعثه رسولا (ابن هشام 81/1 ، ضيف 1979:
286)

2- مجيئ " أمّا " في مثل قولهم : أما زيد فذاهب ، معنى التوكيد ، حيث قال عنه
: فائدة " أمّا " في الكلام أن تعطيه فضل توكيد ، تقول : زيد ذاهب . فإذا
قصدت توكيد ذلك ، وأنه لا محالة ذاهب ، وأنه بصدد الذهاب ، وأنه منه
عزيمة قلت : أمّا زيد فذاهب (ابن هشام 57/1 ، ضيف 1979: 286)

- 3- أن " الواو " تأتي بمعنى الإباحة في مثل قوهم : جالس الحسن وابن سيرين (ابن هشام 2/1، 364/64، ضيف 1979: 286)
- 4- والرافع للخبر هو الإبتداء فقط ، خلافا لما ذهب إليه ابن جني حيث يرى أن رافع الخبر هو الإبتداء والمبتدأ معا (ابن يعيش 83/1 ، الرضي 87/1)
- 5- جواز توسط " إلا " بين النعت ومنعوته ، سواء كان النعت مفردا ، مثل : ما مررت برجل إلا شجاع ، أو جملة ، مثل : ما مررت بأحد إلا زيد خير منه (ابن يعيش 92/2 ، السيوطي 230/1) . وعلى هذا جعل الجملة بعد " إلا " في مثل قوله تعالى (وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم) صفة لـ " قرية " ، لأن الواو تفيد لصوق الصفة (ضيف 1979: 286)
- 6- الفرق بين التعديّة بالهمزة والتضعيف ، فالتضعيف يفيد التعديّة ومعنى التكرار ، كما في " نَزَلَ " ، بخلاف الهمزة في " أنزل " فلا تفيد إلا التعديّة فقط (السيوطي 82/2)
- 7- جواز وقوع الجملة فاعلا ، بدليل استخراجها في قوله تعالى في سورة السجدة : 26 (أولم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون) حيث جعل جملة " كم " وما بعدها فاعل الفعل المجزوم " يهد " (ضيف 1979: 286)
- 8- " لن " تفيد تأكيد النفي وتأييده ، مثل : لن أجبن (ابن يعيش 111/8)
- 9- جواز نصب الاسم بعد " لا " الثانية في قولهم : لا حول ولا قوة إلا بالله ، على أنه مفعول لفعل مقدر تقديره " ولا أرى قوة " (ابن يعيش 101/2 ، الصفا 1986: 120)
- 10- إن البدل مستقل بنفسه ، وأنه ليس من تنمة الأول كالنعت بكونه في حكم تكرير العامل ، إلا أنه حذف لدلالة الأول عليه (الصفا 1986: 130)
- 11- اعتبار الربط بالضمير وحده شاذًا في الجملة الاسمية الواقعة حالا (الصفا 1986: 606)

- 12- جواز دخول " ربّما " على الجملة الاسمية والفعلية على السواء ، مثل : ربما قام زيد ، وربما زيد في الدار (الصفحة 1986: 696)
- 13- وجوب قلب ألف " لدى " و " على " ياء إذا أضيفتا إلى ياء المتكلم أو إلى الضمير (الصفحة 1986: 823)

الخلاصة

الزمخشري عالم موسوعي ، متفنن في علومه ، متبحر في معارفه ، حر في التفكير، قوي في الحجة ، بارع في الجدل . وهو مؤلف نشيط يقضي جميع أوقاته في البحث والتأليف حتى ترك لنا وللأجيال اللاحقة ثمرات عقله الجنية ، و خلاصة أفكاره النيرة .

المراجع

- الحوفي ، أحمد مُجّد ، 1980 . الزمخشري . الطبعة الثانية . القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب .
- السيوطي ، الإمام جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، دون تاريخ . همع الهوامع شرح جمع الجوامع في علم العربية . الجزء الأول . بيزوت : دار المعرفة للطباعة .
- ، الإمام جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، دون تاريخ . همع الهوامع شرح جمع الجوامع في علم العربية . الجزء الثاني . بيزوت : دار المعرفة للطباعة .

الصفاء ، نجم الدين الحاج عبد ، 1986 . تنبيهات الأشموني في الجزء الثاني من شرحه لألفية ابن مالك (دراسة وتحقيق) . رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية اللغة العربية جامعة الأزهر بالقاهرة .

ضيف ، شوقي ، المدارس النحوية . الطبعة الرابعة . القاهرة : دار المعارف
ابن هشام ، الإمام أبي مُجَدِّد عبد الله جمال الدين بن يوسف بن أحمد بن عبد الله الأنصاري ، دون تاريخ . مغني اللبيب عن كتب الأعراب . الجزء الأول . دون المكان والطبع .

----- ، الإمام أبي مُجَدِّد عبد الله جمال الدين بن يوسف بن أحمد بن عبد الله الأنصاري ، دون تاريخ . مغني اللبيب عن كتب الأعراب . الجزء الثاني . دون المكان والطبع .

ابن يعيش ، الشيخ العالم العلامة جامع الفوائد موفق الدين يعيش بن علي النحوي . شرح المفصل . الجزء الأول . بيروت : عالم الكتب .

----- ، الشيخ العالم العلامة جامع الفوائد موفق الدين يعيش بن علي النحوي . شرح المفصل . الجزء الثاني . بيروت : عالم الكتب .

----- ، الشيخ العالم العلامة جامع الفوائد موفق الدين يعيش بن علي النحوي . شرح المفصل . الجزء الثالث . بيروت : عالم الكتب .

----- ، الشيخ العالم العلامة جامع الفوائد موفق الدين يعيش بن علي النحوي . شرح المفصل . الجزء الرابع . بيروت : عالم الكتب .

----- ، الشيخ العالم العلامة جامع الفوائد موفق الدين يعيش بن علي النحوي . شرح المفصل . الجزء السابع . بيروت : عالم الكتب .

----- ،الشيخ العالم العلامة جامع الفوائد موفق الدين يعيش بن علي
النحوي . شرح المفصل . الجزء الثامن . بيروت : عالم الكتب .